النهضة الشرقية الحديثة

اظهر مظاهرها وابقى آثارها

١ — رأي السيد جميل صدقي الزهاوي

عضو مجلس الشيوخ العراقي

اني لا ارى في الشرق الادنى نهضة ذات مظاهر ليكون فيها ما هو اظهر المظاهر. وهل تكون نهضة الا حيث يكون هدم لقديم ضار وبناء لجديد نافع مكانهُ واي تحطيم لقديم وبناء لجديد في بلاد الشرق الادنى؟ بل كل ما هنالك هو المحافظة على ما ورثهُ من النظم الاجتماعية والقوانين المسنونة لأمم بائدة والعادات التي ولدتها الحاجات في ازمنة مترامية في القدم. ولا يجوز ان اعدَّ ما نشاهدهُ اليوم من آثار الرقي الا مقدمات لنهضة قد تتمخض بها الايام في مستقبلها

وهذه المقدمات هي (١) كثرة المدارس في العواصم وملحقاتها بالنسبة الى ما كانت عليهِ قبل خمسين سنة و(٢) كثرة المطابع والصحف والكتب التي تطبع وكثرة قرائها و(٣) كثرة الاندية العلمية والادبية و(٤) ما يترجَم من المؤلفات الفرنسية والانكليزية الى العربية و (٥) شدة الحماسة وكثرة المظاهرات الوطنية و (٦) وجود البرلمانات في اكثر العواصم وان كانت دساتير بعضها في مصلحة المسيطرين على واضعيها و(٧) شدة احتكاك الشرق العربي بالغرب لسهولة الانتقال من احدهما الى الآخر وتشبع الشرقيين بافكار الغربيين ذاك التشبع الذي يولد فيهم نزعة قوية الى الاستقلال الذاتي و(٨) سرعة انتشار الانباء عما يحدث فوق الارض بفضل ما تذيعهُ الشركات البرقية التي تربط الامم بوشائج من الآراء و (٩) تنبه الامم بعد الحرب العالمية الى الطوارئ الكونية حذراً من ان يصيبها في المستقبل رشاش من نوع ما اصابها في الماضي القريب و(١٠) تتابع الحوادث والانقلابات بسرعة في كثير من اقطارهِ كالثورات القائمة اليوم وخروج قطر من يد ملكه الى يد آخر

كل اولئك مقدمات — كما قدمنا — لنهضة الشرق الادنى نهضة صادقة فاذا نهض اخذ باسباب تقوية نفسهِ من تحطيم للنظام القديم واقامة النظم الجديدة مكانها وتطبيق العلم على العمل في الاقتصاد وغيرهِ. ولا قوة كالاتحاد فاذا اتحدت الشعوب استطاعت ان تدرأ عنها الحيف

يعيش شعب إذا ما ضيم ينتفض من الهوان والاَّ فهو ينقرض
وليس من قوة في الكون قاهرة تستطيع ان تقعد الاقوام ان نهضوا

أما النهضة الحقيقية فهي ان تنتبه الامة الى داءها وتلم بدوائها وتعقد العزم على تغيير كل ما يغير مجتمعها من نظم وقوانين وعادات هي تراث الاسقام غير مراعية لاحساس افراد منها جمدوا على ما وجدوا عليهِ آباءهم الاولين من القديم الرث فلا يبغون عنهُ حولا

واما المقدمات التي بسطتها فليست كافية للنهضة التي نحلم بها ولذلك لا ارى زمانها وشيكاً . اين النهضة من بلاد فيها الاكثرية للذين وجوههم عند مشيهم منصرفة الى الماضي وراءهم وعيونهم كليلة عن المستقبل امامهم ، والناظرين الى كل تقدم بعين السخط والحاسبين كل رأي يخالف معتقدهم كفراً ومروقاً عن الدين ، والرجعيين من العلوم العصرية ، والثائرين على كل اصلاح فيهِ مسٌّ لمعتقداتهم وعاداتهم الموروثة وان لم تكن من الدين ، والفرحين باحلامهم الباطلة ، والساخرين من الحقائق وان كانت ملموسة والمفضلين لآخرتهم على دنياهم

واذا كان بعض شعوب الشرق الادنى قد اخذ يمشي الى الامام فان مشيهُ وئيد لا يصل بهِ الى من تقدموهُ شوطاً بعيداً

ليس الذي جاء يمشي اليوم مقتدياً بسابق للألى من قبلهِ ركضوا

وان اصدق مثال محسوس لنهضة الشعوب الحقيقية هو نهضة الاتراك فانهم لما رأوا الخلافة حجر عثرة في سبيل رقيهم ابطلوها ، والحجاب مانعاً لاختيار كل من الزوجين للآخر مزقوهُ ، وتعدد الزوجات مؤذناً بشقاء العائلات التي هي الوحدات البانية للمجتمع منعوهُ ، والطلاق مجحفاً بحقوق الزوجة قيدوهُ بالشروط ، والقانون المدني غير كافل بحاجات الشعب غيروهُ ، والطربوش غير واقٍ من الحر والبرد والمطر ابدلوهُ بالقبعة

واذا سألتني عن وسائل النهضة الحقيقية فاهمها في نظري هو ان يتراسل اولو الرأي من العلماء في كل البلاد ويتألف منهم احزاب غايتها اصلاح العائلات وتعميم القراءة والكتابة بين الرجال والنساء على حد سواء بجعل المحكومات عليهِ

يرفع الشعب فريقا ن اناث وذكور
وهل الطائر الاَّ بجناحيهِ يطير

ونشر العلوم العصرية اكثر مما هو اليوم ولاسيما الطبيعية والاجتماعية منها فان هاتين تمنقان الاذهان وتجبان القادرين على قلب الوضع الاجتماعي الفاسد وتغيير الحال باحسن

منها . وما الامم الاّ بالنابغين من افرادها واذا اتفقت الشعوب فمن السهل ان تنال حقوقها بمطالبة عامة يعضدها عشرات الملايين من الناس . وهل الثورات القائمة المرة بعد الاخرى في بعض البلاد العربية الاّ منبعثة من ضجر شعبها من قيودهِ الثقيلة في حين ترى شعوباً كثيرة قد تنعمت باستقلالها في ظل السيوف المرهفة ما عليها من رقيب

على ان من الخطل ان يحاول شعب تحرير نفسهِ بالمناوأة قبل ان يستعدّ لها بعلمهِ وثروتهِ وسلاحهِ ومحالفة غيرهِ من الشعوب

لا يقتني استقلالهُ شعب لهُ لم يستعدا
شعب اذا لم تستبدّ بهِ حكومتهُ استبدا
شعب يسلّ بضعره واذا الم فلا مردّا
شعب يظن الجد هز لاً كلهُ والهزل جدّا
شعب يعرّض للطا م بكل يوم منهُ خدّا

ومن مصلحة الحكومات المنتدبة ان تتساهل مع الشعوب المنتدب عليها باعطائها بعض ما تبتغيهِ وارضائها بذلك قبل ان يحدث الضغط انفجاراً لا تحمد عقباهُ فان هذا التساهل يؤخر الى حين المطالبة بجميع ما هو حق لها . ولا يبعد ان يتحول الامر بذلك التساهل الى معاهدة موقوتة تضمن للطرفين منافعها

ولو تساهلت فرنسة مع الشعب السوري فانالتهُ ما هو من حق الشعوب في حياتها الاجتماعية وكيّفت صورة انتدابها بمثل المحالفة العراقية الانكليزية لما حدثت الثورة ولانقمعت بعد حدوثها وعاد السلام مرفرفاً على تلك الربوع

يبتغي الشعب ان يسدّ الخروقا يبتغي الشعب ان ينال الحقوقا
يبتغي الشعب ان يرى للساوا ة شمولاً وان يزيل الفروقا
يبتغي الشعب ان يقايض حرّا يبتغي الشعب ان يسير طليقا
يبتغي الشعب ان يشقّ الى العلا ومنهُ الى البقاء الطريقا
يبتغي الشعب ان يكون لديهِ كل فرع من العلوم وريقا
يبتغي الشعب ان يرى العهد قد ابرمهُ ذلك الحليف وثيقا
يبتغي الشعب بالسعادة فوزاً ولآمالهِ عنده تحقيقا
يبتغي الشعب ان يكون رضيا وافر العز او يموت حنيقا
انهُ حرٌّ لا يريد وان هدّ دَ بالموت ان يكون رقيقا

انهُ ادّى قبل ذا ثمن استقلاله من دمٍ لهُ أُهريقا
انهُ لا يروم ان يتولى امرهُ غيرُ من يراهُ شفيقا
انهُ لا يودّ ان يذهب الامنُ فيؤذي منهُ فريق فريقا

بغداد جميل صدقي الزهاوي

٢ — رأي العلامة « فهر الجابري »

لا يمكن لاحدٍ ، عربيًّا كان او غربيًّا ، ان ينكر اليوم ما في الشرق الادنى (مصر وفلسطين وسورية والعراق وبلاد العرب) من النهضة العجيبة . وهذه النهضة تمسّ افكار القوم وآراءهم وحكومتهم وعلومهم وصنائعهم ، فمن اين بدت حركتها الاولى ؟

ان العاقل المتروي لا يكتفي بمشاهدة ما يقع تحت حسّهِ من الاحداث ، بل يودّ ان يصعد الى الينبوع الاول ليشمل بنظرهِ الثاقب ، الباطن والظاهر ، ما يجول في الضمائر ، ويجري في اعنة الوقائع

ابتدأت الحركة الجديدة من مصر ، على ما يبدو لي ، وذلك على الوجه الآتي :

تناوبت الايدي على ديار مصر ، ولما وُفّق سليم الاول ، سلطان آل عثمان ، للقضاء على سلطة الغوري (١٥٠١ — ١٥١٦) وتومان بك (١٥١٧) جعل تلك الديار « باشويّة » (اي بلاداً يحكمها باشا) الاّ ان الحقيقة بقيت على حالتها الاولى ، اي ان تلك الاصقاع لم تنقطع عن ان تكون بايدي المماليك ، اولئك الخلائق المنزوع من قلوبهم كل رحمة ورأفة ، بل اولئك الذين طبعت قلوبهم من الحديد الصلب ، وليس همهم الاّ العسف والعنف والجور على اختلاف ضروبهِ والوانهِ

كل تلك الاحوال هيأت في النفوس نفوراً واشمئزازاً حتى حاول اصحابها التخلص من اولئك الطغاة الجبابرة باي صورة كانت

ولما دخلت سنة ١٧٩٨ ، كانت مطامع بونابرت قد بلغت اقصى اوجها ، كان يُغري نفسهُ باخضاع العالم لامرهِ . فهبط مصر في السنة المذكورة ومعهُ جماعة من علماء وطنهِ واحفيائهِ ، فبذر فيها بذور العلم ومعها بذور الجشع والطمع وحب التسلّط على تلك الربوع العامرة المهملة . اقام الفرنسيون في ارض الفراعنة اربع سنوات (١٧٩٨ — ١٨٠١) حبّبوا فيها العلم الى المصريين ونشّوا في صدورهم روح الوطن والمقاداة لهُ ، وروح الكراهية

لاولئك المفسدين العابثين بالبلاد العائثين فيها

الاّ ان الانكليز كانوا ينظرون الى وجود الفرنسيين في وادي النيل اسوأ النظر وخافوا ان يثبتوا فيها فيكونوا من اقوى الدول واغناها اذا ما تمكنت اقدامهم ، فجاؤوا وطردوهم، اي انهم افهموهم ان بقاءهم في تلك الربوع يزعزع دعائم السلم والراحة في العالم فغادرها الفرنسيون ، الاّ ان بذور العلم بقيت تفعل في النفس الى ان بسقت دوحة في نفس محمد علي محيي مصر الحديثة في القرن التاسع عشر

ولمحمد علي في ولاية (من اعمال الرومليّ) في سنة ١٧٦٩، ولما شبّ تعاطى التجارة ، واذ رأى في نفسه انهُ لم يخلق لها ، تجنّد . فوجد فيهِ رؤساؤهُ ما لم يجدوهُ في كثير من الجنود ، اي حققوا فيهِ روح الشجاعة والاقدام على مصاعب الامور ، وحب التفوّق على الاقران ، فأرسل الى مصر ليحارب الفرنسيين ، فما عتم ان اشتهر في واقعة « ابو قير » (سنة ١٧٩٩) فجرح فيها ثم لقّب « سرعشمة » وآمر جيش الارناؤوط

ولما كان طموحاً ، توسل الى ان يعيّن قيم مقام الباشا فنجح (سنة ١٨٠٤) والباشا يومئذٍ في مصر نائب السلطان . ثم آنس في المماليك ضعفاً ، فاتفق مع الارناؤوط ليكون هو الباشا ، فكان كذلك (سنة ١٨٠٥) ، واكره الباب العالي على ان يعترف بهِ فاقرهُ في منصبهِ (في ٩ تموز (يوليو) من السنة المذكورة

وانفتحت لهُ سبل النجاح في حملتهِ على الوهابيين ، الى غير تلك الوقائع التي دونها لهُ التاريخ بكل فخر واعجاب ، على ما هو مثبت في الكتب

واراد بعد هذا ان يثبت قدمهُ في البلاد التي قبض على ازمتها فلم يجد لهُ ما يعوزهُ فيها سوى مجاراة الغربيين في حضارتهم . ففعل . فادخل في الجيش نظام الغرب ودرّبتهُ وأصولهُ . وكان المقاومون لهُ كثيرين ، فلم يعرهم اذناً صاغية . ثم عزّز فيها الزراعة والفلاحة والتجارة والصناعة

ثم قال : العلم ، العلم ! فاسس عدة مدارس لتفرغ لعلوم متنوعة فشيد مدارس عسكرية وصناعية وطبية وصيدلية وهندسية وارسل الى ديار اوربا — ولاسيما الى فرنسا — شباناً ليتلقوا العلوم الحديثة و ينشروها في ربوعهم عند عودتهم اليها ، ففعلوا

ومن شايعهُ في آرائهِ الفرنسيون ، فكان يكثر منهم في عدة شؤون ودواوين ومدارس ، وعلى هذا الوجه وضع الحجر الاول لاساس العمران الشرقي

ثم جاء رفاعة بك فزاد في دعامة العلم قوة جديدة واثبتها ومكّنها على اسسها . وبعدهُ

جاء محمد عبده فافتى في امور عديدة تساهلاً فيها للتقرب من الحضارة العصرية الغربية ، الاّ ان روح الوطن بقي ضعيفاً او قل مخبوءاً في طيّات النفوس ، فجاء مصطفى كامل باشا وزغلول باشا فصقلا النفوس صقلاً تراءى في فرندها ما كانت مطبوعة عليه من الشهامة والكرم واذا بمصر دولة ناهضة تضارع اليوم احسن الدول الراقية في بلاد الغرب

على ان ارض الفراعنة لم تبقَ وحدها ساعية في ميدان الحضارة ، بل دارت الامور على وجهٍ تمكّنت فيها سورية من الانتعاش

جاءت مذابح سنة ١٨٦٠ ، في سورية فيتمت اطفالاً من الاناث والذكور الوفاً ، ولم يكن لهم معين ؟ فجاء الاميركيون والفرنسيون واقاموا دُورَ علمٍ لهم ، فدخلت الحضارة الغربية الى سورية باسرع من دخولها الى ديار النيل ، لانها دخلت بلاد النواعنة على يد الحكومة ولم يكن للاناث فيها حظ او حظ زهيد ، فكأنها دخلت تعرج على رجل واحدة اما في ربوع الشام فانها دخلت تعدو على رجلين ، على البنين والبنات ، فكان للاناث حظ كحظ الذكور في هذا العمران المعقول . ولو ساعدت الحكومة العثمانية تلك الحركة المباركة كما جرى في مصر ، لكانت اليوم سورية ارقى بلاد الله الشرقية كلها جمعاء ، لكن جرت الامور على خلاف ما جرت في ربوع وادي النيل ، وفي الآخر ساعدت الواحدة الاخرى وهكذا توحدت الغايات ، بعد ان تفرقت الوسائط

كلية الاميركيين اخرجت رجالاً كباراً ، وكذلك انجبت عظماء كلية اليسوعيين ، وراهبات المحبة شيّدْنَ دور ايتام ومدارس عدة ، فاصبح مسيحيو البلاد السورية على يفاع من الحضارة والعمران ، ولما لم تتسع لهم البلاد لتحقيق امانيهم ضربوا في الاصقاع القريبة والبعيدة ، الى مصر واوربا واميركا ، فتمّ لهم الرقيّ على الوجه المعهود في الامصار الناهضة

اما فلسطين فتم لها النهوض مستفيدة من انتعاش سورية ومصر وان كنا لا ننكر ما للهاجرات الاجنبية من الفضل عليها . والدليل على ذلك ان النهضة كانت للنصارى قبل ان تكون لغيرهم ، لاتصال هؤلاء باولئك الاقوام الأغراب

وكان رقيّ العراق بصورة لا تشبه صورة تقدم مصر ولا الديار الشامية ، كان رقيهُ على يد رجل نابغة من الاتراك ، على يد مدحت باشا - فان ذلك الشهم كان قد درس في فرنسا وتشبع من أفكار اهاليها الحرّة المتساهلة . فلما عُيّن والياً لبغداد ، احتاط بافرنج على اختلاف قومياتهم الاّ ان جامعة العلم كانت تضم بعضهم الى بعض ، كان فيهم الفرنسي والبلجكي والنمسيّ والالماني والايطالي . وبواسطتهم ادخل العلوم الحديثة في

العراق . فاسس مدارس عالية ورشدية واعدادية وعسكرية ، وادخل فيها مطبعة كبيرة بجميع لوازمها ، وانشأ فيها جريدة « الزوراء » وعلم الجند الموسيقى بآلات النفخ والقرع على ما معمول في ديار الغرب ومدّ بين بغداد والكاظمية (وهي ربض من ارباضها) الترام الذي تجرهُ الخيل وشاد داراً لحياكة الثياب العسكرية سميت « العبّاخانة »

كل هذه الحدثات العصرية وغيرها جاء بها مدحت باشا واستقدم لها رجالاً افرنجاً كما قلنا ، فأداروها احسن ادارة في اول الامر ، ثم لما ذهب الى الشام وغيرها ، انحطت تلك المشيدات عما كانت في عهدهِ ، الاّ ان مدارس الحكومة وسائر المعاهد بقيت سائرة في وجهها . وفي كل سنة كان يذهب فريق من البغداديين بين ثلاثين الى اربعين ليدرسوا في الاستانة الدروس العالية ، واغلبهم كانوا يتوسعون في العلوم العسكرية او الطبية ، فكانوا يعودون الى العراق ، وعقولهم قد توسعت ولم يبقَ فيهم ذلك الجمود الذي كان يشاهد في من لم يزايل بلادهُ

اما جزيرة العرب ، فانها بقيت في اخريات هذه الاقطار كلها ، لانها لم ترد الاتصال بكل غربي ، بل كانت تكره الاتراك أنفسهم ، لان ابناء الجزيرة كانوا يعتبرونهم من متأثري الافرنج في جميع امورهم . ولهذا كنت تسمعهم يسمون التركي « روميًا » : اما اليوم (اي بعد الحرب الكبرى) فقد يرى في عرَبة نهضة جديدة ، لانها رأت ان بقيت على ما هي من التأخر ، يقوى عليها جارها فيبتلعها . وهذا التغيُّر في الافكار جاءها من اتصالها بالانكليز قبل الحرب وبعدها ؟ الاّ ان صلتها باولاد بريطانية اصبحت اقوى وامتن واوثق بعد الحرب

وبعد هذا البسط الوجيز يتحقق المتروّي ان هذه النهضة لم تأتِ عفواً ، بل حصلت من لقاح جاء من ديار الغرب مباشرةً او اعتباطاً

وربما كان يذهب هذا اللقاح ادراج الرياح ، لولم يهيئ لهُ الوسط ما يحافظ عليهِ ويسعى في العناية بهِ بحيث تأتي الثمرة على يد من عرف قدر ذلك اللقاح وتابع المساعي لكي لا يتسلط عليهِ ما يتلفهُ او يفسدهُ او يسلط على ثمرتهِ مرضاً يذهب بها بعد ان قاربت البلوغ . وهذا العامل العالم هو عندي « المتنطف » فاقول بحيث يصمّ صوتي آذان السامعين : « لولا المقتطف وسعيهُ الحثيث في تشجيع الناس على تلقي العلم والعناية بتحصيل الصنائع ، لما كان لذلك اللقاح نتيجة ، كما يقع مثل هذا الامر في ما تلقحهُ الطبيعة من الزهر ، إذ كثيراً ما يسقط ويتناثر لان الوسط لم يلائمهُ او لان مرضاً تسلط عليهِ فاتلفهُ »